

ظاهرة التنعيم في البحث الصوتي

بين القديم والحديث

الدكتورة :

أمنية بن مالك

جامعة قسنطينة * الجزائر *

محتويات البحث

المقدمة : أسس الفهم النحوي عند العرب

الموضوع : ماهية التنغيم : لغة واصطلاحاً

. بين النغمة و التنغيم

. بين التنغيم و النبر

. التنغيم في الدرس الصوتي

. عرض آراء الباحثين المحدثين (هزي فليش برجستراسر - بوكلمان)
وتحليلها .

. تصور القدماء لهذه الظاهرة

. ابن جني ، سيبويه ، ابن يعيش .

. تصور المحدثين للتنغيم كملح تميزي يقوم على أساسه فهم كثير من
الأبواب و الأساليب النحوية كالندبة ، و الشرط ، و الاستفهام
والتعجب .

(كمال بشر ، تمام حسـان ،)

النتائج

المقدمة : أسس الفهم النحوي عند العرب :

لقد أدرك النحاة العرب قصور فهمهم نحو العربية ما لم يدرسوا أصواتها ، فكانت عنايتهم بطبيعة الصوت ، ومخارجه ، وجهاز نطقه وصفاته العامة والخاصة وقوانينه ، فجاءوا بزيادة وفير ماثل في عشرات المصطلحات الصوتية التي تومئ الى جليل ما قدموا وعزيموا خلفوا رغم شح الوسائل والأجهزة في عصرهم إن لم نقل انعدامها . وقد شهد لهم بذلك عالمان غربيان هما : برجستراسر الألماني ، وفيرت الانجليزي (1)

يقول الأول : لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان العرب والهنود . ويقول الثاني : إن علم الأصوات قد نما وشب في خدمة لغتين مقدستين هما الهندية والعربية .

وعلى الرغم من هذا الاعتراف تصادفنا آراء انتقدية في مجال (التنغيم) عاب بها الداسون المحدثون خلو الدراسات الصوتية القديمة من مصطلح (التنغيم) وقد أهمله العلماء الأوائل ولم يستخدموه كوسيلة من وسائل الفهم النحوي . فما مدى صدق هذه الانتقادات ؟ وهل لنا أن نساير هذا الزعم والاقتراض ؟ ذلك ما نحاول أن ندلو بدلونا فيه .

ماهية التنغيم :

التنغيم في اللغة : الكلام الخفي . تقول نغم ينغم نغما ، وسكت فلان فما نغم بحرف وما تنغم مثله .
وفلان حسن النغمة ، إذا كان حسن الصوت في القراءة أو الغناء (2) .

1 - أحمد مختار عمر . البحث اللغوي عند العرب . مصر . دار المعارف . 1971 . ص . 48 .

2 - الجواهري الصحاح . مادة : (نغم) .

وفي الاصطلاح : يعرف التنغيم بأنه المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع ، والانخفاض فى درجة الجهر فى الكلام ، وهذا التغيير فى الدرجة يرجع إلى التغيير فى نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين ، هذه الذبذبة التى تحدث نغمة موسيقية يطلق عليها مصطلح (التنغيم) (1) وتسمى النغمة (صاعدة) إذا تم صعودها من أسفل إلى أعلى المقطع الذى وقع عليه النبر وهابطة إذا تم نزولها من أعلى إلى أسفل على آخر مقطع عليه النبر .

بين النغمة والتنغيم :

يفرق الدكتور أحمد مختار عمر بين النغمة والتنغيم باعتبار اختلاف درجة الصوت فيقول : وهناك نوعان من اختلاف درجة الصوت يمكن تمييزهما :
أ- نوع يسمى بالنغمة أو «التون» (TONE) وهنا تقوم درجات الصوت المختلفة بدورها المميز على مستوى الكلمة ولذا نسمى توثان الكلمة .
ب - نوع يسمى بالتنغيم (INTONTION) وهنا تقوم درجات الصوت المختلفة بدورها المميز على مستوى الجملة أو العبارة أو مجموعة الكلمات (2) .
وقد اقترح «دانيال جونز» استخدام المصطلح «تونيم» لمجموعة التنوعات أو «لعائلة التنوعات» التونية وكان ذلك عام 1921 وعرف التونيم بقوله: (هو عائلة من التونات في لغة تونية معينة تستخدم فى أغراض لغوية كما لو كانت سببا واحدا . والفرق بينهما يرجع إلى محيط آخر، ويسمى كل عضو من أعضاء التونيم (ألوتون) وذلك على نمط تسمية العائلة من الأصوات (فونيم) ، كل عضو من أعضائه «ألوفون» (3) . وما يلاحظ أن الفصل بين التون والتنغيم يبدو صعبا فى بعض الأحيان وخصوصا فيما يتعلق بالكلمات المفردة التى تستعمل كجواب فى اللغة العربية مثل: أجل، نعم، كما أن كل لغة لها بالنسبة لكل مجموعة من الكلمات أو الجمل نماذج من التنغيم متميزة.

1 - تمام حسان . مناهج البحث في اللغة . القاهرة . 1955 ص 164 .

2 - أحمد مختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي . عالم الكتب . 1976 . ص 191

3 - نفسه . 194

وكما تتنوع اللغات ونماذجها يوجد تنوع بين الأفراد ولذلك يصعب قول ماريوباي:
أ - إنه من الأسلم ألا يحاول المرء وضع قانون صارم يحد بطريقة النطق .
فالتنغيم إذن هو موسيقى الكلام (1) وهو عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو
الإيقاعات فى حدث كلامي معين (2) .

بين التنغيم والنبر :

يتضح من خلال هذه التعاريف أن التنغيم ذو صلة وثيقة بالنبر إلا أن الفرق بينهما
يكمن فى أن النبر ضغط على الكلمة المفردة أو فى سياقها فى حين أن التنغيم تشكيل
صوتى للجملة أو العبارة كلها .

والرابط بين التنغيم والنبر يكمن فى أن النبر وإن كان ضغطا على مقطع من
مقاطع الكلمة فإن حصيلة الأنبار تشكل (التنغيم)

لذا من باب المجاز نطلق مصطلح «التنغيم » على النبر وعلى كل ظاهرة صوتية
يتشكل من مجموعها ما يسمى بموسيقى الكلام كالسكتة والوقفة وغيرها (3) .
كما يعتبر من الفونيمات مافوق التركيب من ناحية فونولوجية و (وظيفته)
عند المتحدثين .

مشكلة التنغيم :

لقد ثار جدل حول المشتغلين بالبحث الصوتى حديثا مفاده هل التنغيم من
الظواهر الصوتية التي اهتم بها علماء العرب القدامى ووجدت فى أبحاثهم ؟ وهل
عززت هذه الدراسات بنصوص تؤكد وجود التنغيم ؟ وما مدى استخدامهم له فى الفهم
النحوي ؟ وماراج من خلال طرح هذه المشكلة أن فريقا من الباحثين المحدثين أيد وجوده
وأحسن الظن بهم، وآخر أنكر دراستهم لهذه الظاهرة الصوتية واتهمهم

-
- 1 - ابراهيم أنيس ، الأصوات اللغوية . ط : 5 ، مكتبة الأنجلو المصرية . 1975 . ص 123 .
 - 2 - ماريوباي أميس علم اللغة . ترجمة وتعليق أحمد مختار عمر . ط : 2 القاهرة . علم الطب . 1983 . ص . 93 .
 - 3 - نفسه . ص 93

بالإهمال لها (1) ولعل سر هذا الإهمال أن التنغيم ليس فونيميا فى اللغة العربية. وقبل الشروع فى معالجة معارف العرب فى هذا المجال أجد لزما أن نشير الى بعض آراء الباحثين المحدثين ممن عالجوا مسألة التنغيم فى العربية لأقدام ما انتهت إليه الدراسة الصوتية فى هذا المجال .

يتفق كثير من الدراسين على أن ظاهرة التنغيم باعتبارها مظهرا صوتيا قاسم مشترك بين جميع لغات العالم ،ومن ثمة فهو ظاهرة أدائية فى اللغة العربية . لكنه وإن كان فى كثير من اللغات ذا ملمح تميزي يعطي قيما نحوية وصرفية ودلالية، فإنه فى لغتنا العربية لا يعطي تأثيرا ما فى هذه المستويات كما يرى هؤلاء الدراسون . وفى تأكيد هذه الرؤية تقدم هذه المقولات التى يقول هنري فليش أن نبر الكلمة كان مجهولا تماما لدى اللغويين العرب ،لأنه لم نجد له اسما بين مصطلحاتهم (2) .

ويصرح بعض آخر :

اننا نعجب كل العجب من أن النحويين والمقرئين القدماء لم يذكروا النغمة ولا الضغط أصلا غير أن أهل الأداء والتجويد خاصة رمزوا الى ما يشبه النغمة (3) .

ويظن برجستراسر فى كتابه التطور النحوي :

إنه لانص تستند عليه فى اجابة مسألة كيف حال العربية فى هذا الشأن ...ويؤيد بروكلمان وجود نوع من التنغيم يتمثل فى نوع من النبر فى العربية القديمة تغلب عليه الموسيقية ويتوقف على تسمية المقطع نبر من مؤخرة الكلمة نحو مقدمتها ،حين تقابل مقطعا طويلا تقف عنده فإذا لم يكن فى الكلمة مقطع طويل فإن النبر يقع على المقطع الأول (4) .

أما إنكار معرفة اللغويين العرب للنبر بادعاء جهلهم لمصطلحه على رأي فليش فإنه مردود بعدهم الهمز والنبر شيئا واحدا دالا على الضغط ففي لسان العرب يوضح

1 - البحث اللغوي عند العرب . ص 90 .

2 - هنري فليش . العربية الفصحى . ص 49 .

3 - برجستراسر ، التطور النحوي للغة العربية . القاهرة . 1929 م ص 46 - 47 .

4 - ولفنسوب ، تاريخ اللغات السامية . بيروت ، دار القلم . ص 45 .

ابن منظور: الهمز بأنه الغمز والضغط ، ومنه الهمز من الكلام لانه يضغط . وفسر النبر بمعنى ارتفاع الصوت (1) أي مرادفا للهمز .

وعلى ارغم من أن قدامى اللغويين العرب لم يدركوا (النبر) لبعض الضغط على بعض مقاطع الكلام فإن بعضهم لاحظ أثره فى تطويل بعض حركات الكلام ويسميه ابن جني : (مطل الحركات) فيقول : " وحكى القراء عنهم : "أكلت لحم شاه" أراد لحم شاة فمطل الفتحة وأنشأ عنها ألفا (2) .

وإذا كان النحويون والمقرون لم يذكروا النغمة ولا الضغط أصلا فإن أهل الأداء والتجويد خاصة رمزوا الى ما يشبه النغمة ، كالوقف والسكتة وهذا كفيل على وجود واستشعار العرب بظاهرة التنغيم .

وبما أن اللغة العربية وصلت الينا مكتوبة ، وبكتابتها فقدت عنصر الحياة والأمر الذي شكل صعوبة أمام الدراسين المحدثين حين أرادوا تصور التنغيم فى لغتنا الفصحى قديما ويات الأمر سهلا فى تصوره فى بعض النماذج من لغتنا المعاصرة .

ولهذا إذا أردنا أن نبحث عن قاعدة تبين وجود التنغيم وتتحكم فى مواضعه وفق ما يتطلبه التنغيم فى لغتنا العربية الفصحى ، فلن نظفر بشئ ، وعدم وجود قاعدة محددة أمر لا يمتنع وجوده كحقيقة نطقية فى أقوال العرب القدامى وفق تراثنا اللغوى .

ولهذا اردنا أن نبحث عن قاعدة بين وجود التنغيم وتتحكم فى مواضعه وفق ما يتطلبه التنغيم فى لغتنا العربية الفصحى ، فلن نظفر بشئ ، وعدم وجود قاعدة محددة أمر لا يمتنع وجوده كحقيقة نطقية فى أقوال العرب القدامى وفى تراثنا اللغوى .

ويكفى أن نسوق قصة أوردها السيوطي فى الأشباه والنظائر (3) يقول حاكيا :

" حدثنا المرزباني عن ابراهيم بن اسماعيل الكاتب قال : سأل البيهقي الكسائي بحضرة الرشيد فقال : انظر فى هذا الشعر عيب ؟ وأنشده ...

لا يكون العير مهرا لا يكون المهر مهرا

1 - ابن منظور ، لسان العرب ، ادة (نبر)

2 - ابن جني . الخصائص . تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتاب المصرية 1957 ، ج : 3 . ص 123 - 129 .

3 - السيوطي . الأشباه والنظائر ، حيدة أبدا 1395 ج : 3 ص 245 .

فقال الكسائي قد أقوى الشاعر، فقال له اليزيدي انظر فيه .فقال أقوى لابد أن ينصب المهر الثاني على أنه خبر كان ،فضرب اليزيدي بقلنسوة الأرض وقال :أنا أبو محمد.. الشعر صواب انما ابتداء فقال المهر مهر (1) .

لقد رأى الكسائي أقواء ورادا في رفع كلمة "مهر" فالصواب نصبها باعتبارها خبرا لكان في رأيه ولم يفتن لما رآه اليزيدي الذي استخدم شيئا جديدا في تفسير البيت وهو السكتة والوقفة أو التنغيم الذي جعل جملة (لايكون) التي ضغط عليها حين النطق وأخذت مطا صوتيا لم يعهد لها بعيدا عن هذا السياق .لا صلة بينهما وبين ما بعد فهي توكيد لما قبلها من حديث والإقواء عيب نحوي لاموسيقى لأن مراد الشاعر ومطلبه الدائم هو الحفاظ على العنصر الموسيقى ونغمته وان ضحى في مقابل ذلك ببعض القيم النحوية والصرفية وهو شئ مرخص من أجل سلامة الوزن اذ يجوز في الشعر ما لايجوز في غيره .

ولنا اشارات ذكية أخرى تلمح ببعض آثاره في الكلام للدلالة على معانية المختلفة دون تصريح نلمسها عند ابن جني الذي التفت إليها حين قال :

"وقد حذفت الصفة ،ودلت الحال عليها ، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم :سير عليه ليل وهم يريدون ليل طويل ، وكأن هذا إنما حذفت الصفة لما دل من الحال على موضعها ،وذلك أنك تحس في كلام القائل بذلك من التطويح و التطريح والتعظيم أو ما يقوم مقام قوله طويل ، أو نحو ذلك وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملت ، وذلك أن تكون في مدح انسان و الثناء عليه فتقول كان و الله رجلا ! فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة وتتمكن من تمطيط اللام وفي اطالة الصوت بها وعليها أي رجلا فاضلا وكرما . ونحو ذلك وكذلك تقول : سألتاه فوجدناه انسانا وتمكن الصوت بانسان وتفخمه فتستغني بذلك عن وصفه بقولك انسانا سمحا ، أو جوادا أو نحو ذلك ...

وكذلك اذا ذمته ووصفته بالضيق فقلت سألتاه وكان انسانا ! وتزوى وجهك

وتغطيه فيغني ذلك عن قولك : انسانا أو مبخلا أو نحو ذلك (1) .

ويمكننا من خلال تحليل هذا النص أن نقف عند تلميحات عدة بقصد التنغيم منها :
إشارته لمصطلح (الحذف) في الكلام لقريئة حالية تستدعيها ظروف الكلام
ومقامه وهو ما يعرف بسياق الحال .

ورود مصطلحات صوتية توحى لغة بمعنى التنغيم منها : التطويح، التطريح ،
التفخيم ، التعظيم .

وإذا بحثنا عن مدلول المصطلحات لغة نجد أن التطويح من (طوح الشيء إذا طوله
ورفعه والذهاب بالشيء من هنا وهناك ؟وتطويل الشيء ونقله ورفعته لذا ماتعلق الأمر
بالصوت دلالة قاطعة على اختلاف درجاته التي تتحكم في نغماته وتشكل بمجموعها ما
يسمى بالتنغيم " كما رأينا .

كما أن التطريح :من طرح الشيء إذا طوله ورفعته وأعلاه وما التفخيم الا ظاهرة
صوتية تحدث من حركات عضوية تغير من شكل الفراغات بالقدر الذي يعطي الصوت
هذه القيمة الصوتية المفخمة كما يقول تمام حسان (2) وما يلاحظ أيضا أن نص ابن جني
يعكس وظيفة التنغيم في الاستعمال اللغوي والتي تتمثل في التعبير عن الانفعالات
والتأثر كالفرح والسرور والغضب والحزن . وأنه أضحى من دلائل فهم الصفة ،هي باب
نحوى حيث عبر ابن جني عن ذلك في تمطيط اللام وزوي الوجه وتقطيبه وكلها من
المظاهر التي يستخدم فيها التنغيم كوسيلة لفهمها.

وإذا كان التنغيم يقوم بدور وظيفي في بعض اللغات التنغيمية كالصينية
واليابانية والنرويجية والسويدية وبعض اللغات الافريقية حيث يستخدم كوسيلة للتعبير
على معان مختلفة كالاستفهام والطلب وحالات الغضب والرضا والدهشة والتعجب فإن
قدماء العربية لم يهتموا بتسجيل ظاهرة التنغيم لأنه لم يتسبب في تغيير المعنى (3) .
إلأن ابن جني قد تطفن الى ذلك ولعل هذا النص الفريد كافي للرد على
برجستراسر أن لانص نستند عليه في معرفة كيف حال العربية في هذا الشأن. ومع

1 - الخصائص . ج : 270 1 272 .

2 - مناهج البحث في اللغة . ص 90 .

3 - دراسة الصوت اللغوي . ص 307 .

اعترافنا بفطنة ابن جنى وأما التجويد لظاهرة التنغيم إلا أنه ينفي نفياً قاطعاً الدور التميزي (1) في شأن اللغة العربية من قبل بعض الدارسين وتعليلنا عن ذلك هو بعد المنهج الذي استخدمه الأوائل في النحو والدراسات الصوتية حيث اعتمدوا المنهج التعليلي الذي يعتمد على الفرض والتأويل في الدراسات النحوية والمنهج الوصفي الذي يعتمد على ما هو واقع بعيداً عن الفرض والتأويل الأمر الذي أبعد التنغيم عن خدمة النحو وفهم القضايا قديماً ولم نعثر على قاعدة تدل عليه .

ومع إيماننا بهذا التعليل المنهجي فإننا نحجز بأن ابن جنى لم يكن وحده من قال بظاهرة التنغيم فهناك الكثير من القضايا الصرفية والنحوية التي بنيت على أساس التنغيم ولم تفهم بدونه .

ففي معالجة سبويه لموضوع (الاشباع) (2) وهو تقوية الصوت في المجهور واضعافه في المهموس والذي دعاه ابن جنى (مطل الحركات) (3) فهم واستيعاب لمسألة الضغط على حركات الكلمة لتطول كميتها الصوتية فتصبح الكسرة ياء ، والضممة واوا ، والفتحة ألفا .

يقول ابن جنى :

وذلك قولهم : عند التذكر مع الفتحة في قمتا : ، مع الكسرة أنتى أي أنت ومع الضمة قمتو : فى قمت ونحو ذلك .

فالفتحة متى أشبعت صارت ألفاً والكسرة متى أشبعت صارت ياء ، والضممة متى أشبعت صارت واوا . (4) ، فالاشباع عنصر موسيقي في الكلام يحدث نغمة قد تطول وقد تقصر ويقول ابن جنى :

1 - هذا الرأي قام بمسأيرته بعض الدارسين حيث راؤا أن النبر لم يحط باهتمام علماء العرب الأولين .

راجع : محاضرات في اللغة للدكتور عبد الرحمان أيوب ص 145 .

2 - سيبويه ، الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977 . ج 43 ص 202 - 129 .

3 - الخصائص ، ج 3 ص 123 - 129 .

4 - ابن جنبي ، سر صناعة الأعراب ، تحقيق مصطفى السقا وزملاؤه . ط 1 : مصر مطبعة البابي الحلبي . ج 1 ص 20 .

كما أن إشارتهم الاعراب على المجاورة لا يخرج عن كونه داعيا موسيقيا اقتضى المناسبة بين المتجاورين فأغنت عندهم قرينة التبعية وهي معنوية عن قرينة التعبية وهي معنوية عن قرينة المطابقة في العلامة الاعرابية وهي علامة لفظية ولا شك أنها مظهر من مظاهر التنعيم في العربية (1) .

وفي باب الندبة يقول سيبويه :

(اعلم أن المندوب مدعو ولكنه متفجع عليه فان شئت الحقت في آخر الاسم الألف لأن الندبة كأنهم يترغمون فيها (2) .

ويقول ابن يعيش صاحب الكتاب المفصل :

اعلم أن المندوب مدعو ولذلك ذكر مع فصول النداء لكنه على سبيل التفجع فأنت تدعوه وإن كنت تعلم أنه لا يستجيب كما ندعو المستغاث به ، وإن كان بحيث لا يسمع كأنه تعدده حاضرا وأكثر ما يقع في كلام النساء لضعف احتمالهن وقيمة صبرهن ولما كان مدعوا بحيث لا يسمع أتوا في أوله (بيا أو وا) لد الصوت ولما كان يسلك في الندبة و النوح مذهب التطريب زادوا الألف ، آخر ، للترنم . (3)

ويقول في حرف الندبة : (وأما وا) فمختص به الندبة لأن الندبة تفجع وحزن و المراد رفع الصوت ومدّه لإسماع جميع الحاضرين (4) .

وواضح من هذه النصوص أن الترنم ومد الصوت و التطريب كلهما مصطلحات دالة على التنعيم ، لأن الندبة نداء موجه للمتفجع عليه أو من المتوجع منه و الغرض منها الأعلام بعظمة المندوب وإظهار أهميته أو شدته أو العجز عن احتمال ما به (5) ومن المندوب وحرف النداء يتألف أسلوب الندبة الاصطلاحية قالت

الخنساء (و اصغراه) .

1 - تمام حسان . اللغة العربية معناها ومبناها . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979 . ص 234 .

2 - الكتاب . ج 1 ص 321 .

3 - ابن يعيش . شرح مفصل الزمخشري . عالم الكتب ، بيروت . مكتبة المتنبي . القاهرة . ج : 2 ص 13 .

4 - نفسه 120 .

5 - عباس حسن ، النحو الوافي . ط3 - دار المعارف - مصر . ج 4 . ص 89 .

ونادت جارية (وامعتصماه) وقد اهتم الشعراء بهذا النوع من الأساليب لإظهار الفجیعة الحکمیة ، نذكر قول المعري :

وكانن ترى من صامت لك معجب زیادته أو نقصه في التكلم
أتذاكر معي ؟

فهذه الجملة تحمل سكتة واحدة في النهاية یقف عندها الناطق دفعة واحدة غیر منغم لها تنغیم الشرط .

وقد یحل التنغیم محل الشرط ویكون دلیلا وقائما مقامه ، یقول أحد الشعراء :
فطلقها فلست لها بكفء . وإلا یعل مفرقك الحسام
نجد النحاة یقدرون جملة محذوفة من جملة الشرط وإن لم تطلقها یعل مفرقك
الحسام وأرى أن الضغط على (إلا) وتلوینها أمرا كافیا كفاية أداة الشرط وجملته
وناهيك أن المد النطقي وراء « لو »
« ولما » یشیر فضول الدارس للحكم على أن التنغیم یمكن أن یكون وسیلة من بین
الوسائل لهم أسلوب الشرط.

وفي أسلوب التعجب یقول صاحب شرح التصريح :
في الصیغة السماعیة (لله درة فارسا »

« وانما لم یبوب لها في النحو لأنها لم تدل على التعجب بالوضع بل بالقرينة » (1) .
وهنا نتساءل هل القرينة أمر آخر غیر ملاسبات المقام و المقال) . و المقال في
رأی الدارسین المحدثین صورة نغیمة تؤكد أن المراد به الكلام التعجیبی و لیس أمرا آخر .
وأن جملة التعجب (سبحان الله) قد یقصد بها التقرير حين یذكر الإنسان الله
ولكنها تصبح تعجبه إذا كانت في أسلوب یشیر الدهشة و الإفتعال كأن یقول : سبحان
الله یاأخي ! وأثر عن الرسول (ص) هذا الإنفعال :
سبحان الله إن المؤمن لا ینجس حیا أو میتا .

وفي أسلوب التوكید اللفظي نقف على شواهد كثيرة في شعرنا العربی توحی

1 - خالد الأزهری ، شرح التصريح على التوضیح ، ج 2 ، ص 26 .

بالتنغيم وتتخذ وسيلة للفهم .

ففي قول الشاعر :

لا لأبوح بحب بثنة ... إنها أخذت علي موثقا وعهودا
فالشاعر قال (لا) جوابا للسؤال ثم أعقب جوابه بسكتة وبدأ كلاما مستأنفا
وبدأ كلاما مستأنفا يتصدره النفي قائلا فيه : لأبوح بحب بثنة إنها :
وقد يعبر التنغيم بدلا عن أداة الاستفهام ويحل محلها ، ففي نماذج من شعر عمر
بن أبي ربيعة الغزلي نراه يعتمد النغمة بدلا من أداة الاستفهام:
أبروزها مثل المها تهادي بين خمس كواكب أتراب
ثم قالوا : تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصى والتراب
فالاستفهام هنا ملحوظ من خلال تنغيم جملة (تحبها) والضغط عليها ضغطا يؤكد
ذلك الاستفهام .

وهكذا نجد أن النماذج التي تعبر عن الأنماط التنغيمية كثيرة ولعل توزيع المراد
الاستفهامي إلى معان أخرى كان يدل الاستفهام على الإنكار أو على التوبيخ أو على
النفي يرجع إلى الاختلاف التنغيمي بين أنماط هذه الجمل (1) .
ومانستنتج من هذه الدراسة المتواضعة:

أن التنغيم من الفونيمات الصوتية التي تنتمي إلى مافوق التركيب تميزا له عن
الفونيمات المكونة لبنية الكلمة ويتحكم فيه الأداء ، وهو لذلك لا معنى له في ذاته وإنما
يكتسب مع غيره من الفونيمات دلالة رمزية اعتبارية .
أن التنغيم يعطى دلالة صوتية دالة على الانفعال والتأثير يظهر عند الناطق في
أية لغة فيعبر عن غضبه ، وفرحه ، وسروره ، وهذوه ، وانفعاله .
أن التنغيم ذو ملمح تميزي تفهم على أساسه كثير من الابواب النحوية كالنداء
والندبة والتعجب والاستفهام والشرط .

ولم تتوقف وظيفة التنغيم في فهم بعض قضايا النحو فحسب ، بل تتجاوزها إلى

1 - راجع : ماكتبه كمال بشر في كتابه . عالم اللغة ، وتمام حسان في كتابه اللغة العربية معناها
ومبناها . وخاصة في حديث عن الظاهرة الموقعية المسماة بالتنغيم والمتعلقة بالجملة التأثيرية والإنفعالية .
ص 244 .

إحلال التنعيم محل بعض الأدوات التي تربط الأساليب في الجمل كالاستفهام والشرط ، و التعجب .

فواعجباكم يدعى الفضل ناقص وواأسفاكم يظهر النقص كامل
وقول المتنبي :

واحمر قلباه محسن قلبه بشم ومن بجسمى وحالى عنده سقم
فاستخدم الندبة ليستعطف ممدوحه ليظهر أن قلبه يحترف حبا وهياما وأن يعتل
جسمه في ايجاز شديد كاشف عن موقف سيف الدولة وعظمته وقوته التي تجلت في
قلب بارد في صيغة نفسية جاءت في (وا) .

هذا وللتنعيم دور ليس بالهين في فهم كثير من الأساليب التي تدل على الانفعال
والتأثر وتعبر عن حالات الرضا والغضب والدهشة ، فضلا من فهم كثير من الابواب
النحوية كالتوكيد والتعجب ويمكننا ملاحظة تنوع التنعيم في ارتفاع درجة نغماته بين
الانخفاض والارتفاع في مثل هذه الأساليب

فعبارة التحية التي تلقى (صباح الخير) و(مساء الخير) من الرئيس إلى المرؤوس
ومن الإبن إلى الأب ومن الزميل إلى الزميل ، إذا لاحظنا إلقاء ها نجد أن الموقف ونوع
العلاقة يلعبان دورا هاما في تنعيم هذه التحية تسفر عنها حالات الغضب والحزن
والصداقة والحب والاحترام .

كما نجد أسلوب الشرط يخضع في كثير من قضاياها للعنصر التنقيمي ،
فالسكتة التي توجد بين فعل الشرط وجزاءه تدل على وضوح نغمة يحدد المراد من
الكلام لأنه تمام الفائدة في أسلوب الشرط ، فالأسلوب دونه ناقص محتاج اليه وتختلف
هذه النغمة في أساليب الشرط من حيث الزمن الذي تستغرقه . فزمن النغمة أو
السكتة الفاصلة بين فعل الشرط وجوابه المقترن بالفاء يكون أسرع إذا كان الجواب
مقترنا بالفاء .

يقول زهير بن أبى سلمى :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنيساب ويوطأ بمنسم
من يذاكر فالنجاح حليفه

فربط الفاء يستوجب اسراعاً ، كما تختلف السكتة والنغمة في أسلوب الشرط وأسلوب الاستفهام

أن التنغيم قد أدرك إجمالاً عند القدماء مما جعلهم يتركون دلالات نحوية تنبئ عنه مصطلحات اتخذت معاني مختلفة للتعبير عنه مثل:

السكتة والوقف ، والنغمة ، والتطويح ، والتطريح ، والتفخيم ، والتعظيم والترنم ، والتطريب . وهو إن لم يكن قرين الرؤية القديمة للغة العربية وفهم نحوها ففي هذا عذر يذهب عن القدماء مظنة التقصير لأننا ألفينا من كان يلمح بتواجده دون أن يصرح أن هناك أساليب فصاحة أخرى يمكن فهمها من خلال الظاهرة الصوتية المسماة بالتنغيم كأساليب المدح والذم والاستثناء والقسم .

أن التنغيم يتحكم في المشافهة التي هي قوام اللغة وأساس اعتمادها . ومن هنا حق للدراسين المحدثين أن ينظروا إلى هذه الظاهرة نظرة فونيمية تتعدى التركيب الظاهري لتكون مفهومها أو فكرة يتحقق وجودها بالنطق الفعلي والأداء وهي الحقيقة التي لا يمكن لاحد إنكارها . ومن الأسلم ألا يحاول المرء وضع قانون صارم يحدد طريقة النطق كما قال ماريوباي .



